التمهيد:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيِّد الأوَّلين والآخرين محمَّد بن عبدالله، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، وبعد؛

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب: الفكر بين العلم والسلطة: من التصادُو إلى التعايُش، الصادر في طبعته الأولى عن مكتبة العبيكان سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، أجريت عليه بعض التنقيح والزيادة في الفكرة والمعلومة، وإن لم يجدّ جديد في المجال الفكري في المدَّة بين الطبعتين، سوى التوجُّه إلى احتدام التصادُم الذاتي، داخل الأمَّة الواحدة، بين منطلِق فكريًّا إلى حدِّ التطرُّف، ومنغلِق فكريًّا إلى حدِّ التطرُّف، كذلك، وإن بدا على الانغلاق شيء من الانفتاح.

هي خواطر، كان أصلُها إسهاماتٍ في الصحافة السعودية، عُدتُ إليها، ووجدتُ منها ما يستحقُّ إعادة النشر في كتاب، بعد أنْ أَجريْتُ عليها قدرًا من المراجعة، بالحذف والزيادة والتوثيق، بالمراجع العربية والمعرَّبة والأجنبية، التي استقيتُ منها أفكار هذه الخواطر.

obeikandl.com

وجدتُّني أُعيد الدندنة حول موضوع واحد متجانس العناصر، اتَّضح فيه بعض التكرار في الطرح والاستشهاد، للتوكيد، أوَّلاً، ولإزالة ما قد تتركه هذه الوقفات من لبسٍ في الفَهم، ثانيًا، لاسيَّما عندما يتعلَّق الأمر بالعلم والعلماء، في مقابل الفكر والمفكِّرين، هذا إذا كانت هناك مفارقات أو تقاطُعات بين العلم والعلماء والفكر والمفكِّرين، مع أنَّ الأمر لا يحتمل مثل هذا التفريق أو التقاطُع، سوى ما أُثير أخيرًا من محاولات إبراز أثر الفكر والمفكِّرين، على حساب تجاهُل أثر العلم العلماء.

ربَّما يعود ذلك إلى ما يُقال من قلَّة العلماء في زمننا الحاضر، وبالمقابل كثرة المفكِّرين، الذين قد يكونون خاضوا في توجُّهات فكرية أخرى سابقة، تأثَّروا بها في منطلق نشأتهم الفكرية التي لم تكن إيجابية مع العلم والعلماء، يبحثون من خلالها عن الخلاص أو المخرج من الوضع المتردِّي الذي تعيشه الأمَّة، إلاَّ أنَّهم كانوا على عجلة من أمرهم، أوَّلاً، وتزعزت ثقتهم في علماء الدِّين القائم على العلم، ثانيًا، مما أدَّى في نهاية الأمر إلى تفشِّي ضعف الصبر، وقلَّة التحمُّل على تلقّي العلم من مظانِّه، والغوص للوصول إلى الحكمة بالعلم، لا بالفكر فقط؛ إذ إنَّ تلقِّيَ العلمِ، والتفقُّهَ فيه يختلف، من حيث الجهدُ والوقتُ، عن مجرَّد تكوين أفكارٍ عن موضوعاتٍ ذات نظرات عمومية، ينحو فيها

المفكِّر المنحى الفلسفي، في النظر إلى الأمور، التي يقف عندها العالِم وقفاتِ بحثٍ وتمحيصٍ، وتلمُّسٍ للصواب، كما ينظر العالِم إلى القضايا على أنها ذاتُ منحىً عمليٍّ، ذي صلة بأمور عَقَديَّة أو تعبُّدية أو تعامُليَّة، تنتهي بالتطبيق على واقع الحياة، وما يتبع ذلك من أحكام شرعية، ومن ثواب أو عقاب.

وُجِدَ أنَّ النزوع إلى الفكر قد أعان كثيرًا على وجود عدد من الفجوات بين المفكِّرين أنفسِهم، داخل الإطار الفكري الواحد، أو بينهم هم، وبين من ينتمون إلى أيديولوجيات مختلفة، الأصل فيها أن تلتقي، لا أنْ تفترق.

كما أعان على وجود فجوات بين المفكِّرين والعلماء، وفجوات أخرى بين المفكِّرين والسلطات السياسية، مما أحدَث قدرًا من التصدُّع في المجتمعات، أدّى إلى ممارسات من السلطة السياسية، وممارسات أخرى من أرباب الفكر، في سبيل التصدِّي للسُّلطة السياسية، بأساليب إيجابيَّة حينًا بالاعتراضات المحلِّية، النابعة من الرغبة في المشاركة في صنع القرار السياسي، من وجهة نظر فكرية، أو بالتصدِّي السلبي أحيانًا، كالاغتراب إلى مجتمعات أخرى، تختلف أيديولوجيًا، ويُشَكُّ في ترحيبها بهؤلاء، لمجرَّد أنَّهم مفكِّرون! فساعدتهم الكيانات السياسية في هذه المجتمعات الأخرى، وأيَّدتهم على تكوين مجموعات، تسمِّي نفسَها

جماعاتِ المعارضة، فتُدعم من الآخر، بطرقٍ مباشرةٍ أحيانًا، وطرقٍ غيرِ مباشرة في غالب الأحيان، سواء أعلِم هؤلاء المعارضون بالمقاصد، أم لم يعلموا.

أُتيحت لهم وسائل الإعلام؛ ليعبِّروا عن معارضتهم، وصارت لهم نشراتٌ، ومواقعُ، وقنواتٌ مدعومة، دعمًا مباشرًا أو غيرَ مباشر، بل إنِّهم استُغلُّوا، هم أنفسُهم، مصادرَ معلومات، يفيدون في رسم السياسات تجاه بلدانهم، من قِبَل أولئك الذين يؤونهم.

لعلَّ معظمَهم يعلمون ذلك، ولكنه، على ما يبدو، عِلْمٌ متأخِّر، بعد أن تورَّطوا في هذه المسارات، فأضحى الرجوعُ عن تلك المزالق، وبالتالي إلى الحقِّ، أمرًا يصعُب عليهم الاعترافُ به، بَله التعامُل معه.

هذا مع عدم إغفال فئة من المفكِّرين لا مناص لهم إلاَّ بترك مجتمعاتهم، لما يلقونه من السلطة السياسية في بعض بلدان الشرق والجنوب من عَنَتٍ، فيغادرونها من منطلق: مكرهٌ أخاك لا بطل! فتتحوَّل هذه الجماعات الفكرية في أصل انطلاقتها ورقات، يلوِّح بها الآخر، لإحداث قدر من الزعزعة في المجتمعات، ومن ثمَّ إيجاد هذا التصادُم الفكري، مما يوحي بأنَّ الاستعمار، وإنْ ولَّى زمانه بصورته التقليدية، إلا أنَّ هاجسَه "الهيمني" لا يزال

قائمًا، ويعبَّر عنه الآن بمصطلحات حديثة بديلة، قد يكون منها مصطلح الهيمنة.

تأتي هذه النظرات امتدادًا لنظرات نُشرتْ قبلها، حول الشرق والغرب: مُنطلقات العلاقات ومحدِّداتها،[1] لم يظهر أنَّها ذات علاقة مباشرة بالموضوع نفسه، وإنْ لم تخلُ من وجود علاقة، إلا أنَّ إدراجَها في ذلك الموضوع ربَّما يسهم في تشتيت ذهن القارئ.

بدأتْ هذه الوقفات بالحديث عن عموميَّات الفكر، والمواقف منه، من منطلق ينطبق عليه ما مرَّ الحديث عنه، من حيث المعالجةُ الفكرية. وشمل هذا القسم أربعٍ وعشرين وقفة. ثم انطلقت إلى صنوف من السجال الفكري، الذي قد ينظر إليه على أنه شكلٌ من أشكال التصادُم، الذي يكون أحدُ طرفيه، أو أحدُ أطرافه، الفكرَ والمفكِّرين، وشمل هذا القسم الثاني عشرين وقفة. وسعي القسم الثالث إلى التوكيد على حتمية اللقاء والتعايُش، رغم ما شاب الساحة العلمية والفكرية والسياسية من أشكال التصادُم، وذلك في تسع وقفات. ثم تأتي الخاتمة التي لخَّصت المنهج التي سارت عليه هذه الوقفات، وخلصت إلى ما أكَّد عليه القسم الثالث، مع الاعتراف بوجود الخلاف.

(١) علي بن إبراهيم النملة. الشرق والغرب: مُنطلقات العلاقات ومحدِّداتها. ـ ط ٢. ـ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي. ـ ١٧٣ ص.

لعلَّ هذه الوقفات، بأقسامها الثلاثة، قد وصلت إلى ما أُريدَ منها الوصولُ إليه، دون تَركِ انطباعة لدى القارئ، توحي بأنها تسعى إلى مصادرة الفكر، أو الحجر عليه، أو على المفكِّرين، أو إضعاف أثرهم. وهذا إيضاحٌ يوضع بين يدي هذه الوقفات، رغبةً في التوكيد على أنها ربما تقود، عند بعض المتلقِّين، إلى هذا الفهم.

مهما يكن من أمر فإن الخروجَ بهذه الانطباعة، ومن ثَمَّ الحكم على هذا الطرح، من خلال ذلك، متروك لمن يتهيَّأ له الاطلاع على هذه الوقفات، والمؤمَّل أن تكون قد وفِّقتْ في معالجة هذه المسائل الفكرية، معالجةً موضوعيةً هادئة، يبرز فيها الغرض منها.

لا بُدَّ من كلمة شكر وتقدير لكل من أسهموا معي في إخراج هذا الكتاب، منذ أنْ كانت أفكارًا مشتَّتةً، في بطون الصحف. وأخصُّ بالشكر رؤساء تحرير الصحف، التي احتضنت هذا الطرح، كما أتقدَّم بجزيل الشكر والامتنان لأخي العزيز الأستاذ **الدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزيني**، أستاذ الحضارة الإسلامية، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الذي تفضَّل بقراءة هذا الكتاب، ووضع بعض اللمسات عليه، في الموضوع والشكل. وكذلك أخي العزيز **الدكتور يوسف بن أحمد**

العثيمين، الذي تفضَّل كذلك بقراءة هذا الكتاب، وسجَّل عليه ملحوظاته، التي أثرته، وكان لها أثر في الصياغة النهائية. وللصديق العزيز الأستاذ **محمد بن عبدالعزيز الهزَّاع** فضلٌ في القراءة الأولية والمتابعة في النشر، والإسهام في تصميم الغلاف الخارجي للكتاب. ولأخي **الشيخ يوسف بن إبراهيم الحمد النملة**، الذي أعان في تخريج الأحاديث، فلهم منِّي، جميعًا، الشكر والدعاء. وكان الله في عون الجميع.

علي بن إبراهيم النملة

الرياض

محرَّم ١٤٢٨هـ/فبراير ٢٠٠٧م

obeikandl.com